



مال اليتيم - الكتب السماوية

(012) سورة يوسف

اللقاء الثاني والعشرون من تفسير سورة الأنعام | شرح الآيات 152-157

2024-05-04

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد فهذا هو اللقاء الثاني والعشرون من لقاءات سورة الأنعام، ومع الآية الثانية والخمسين بعد المائة، وهي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدَ الَّذِي لَكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ لَدُنَّكُمْ
 (سورة الأنعام)

هذه الآية تُكمل الآية التي قبلها، وقد قلنا إنَّ هذه الآيات تتحدث عن ما يُسمَّى الوصايا العشر في القرآن الكريم، فهي خمس وصايا في الآية مائة وواحد وخمسين من الأنعام:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أُولَادِكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ تَعْنُ تَرْزُقِكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْقَوَاسِمَ ۚ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ۚ وَلَا تَقْنُتُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ ذَلِكُمْ
 (سورة الأنعام)

الوصية الأولى التوحيد، عدم الشرك بالله، والثانية هي الإحسان إلى الوالدين، والثالثة فهي النهي عن قتل الأولاد من الفقر الذي يحلُّ بأهلهم، والرابعة وهي النهي عن أن يقرب الإنسان الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والخامسة النهي عن قتل النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق، وختم هذه الوصايا الخمس بقوله: **(ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)** لأنَّ هذه الأفعال كان العرب يفعلونها، أو يفعلها بعضهم في الجاهلية كقتل الأولاد من الفقر، وغيرها كان يفعلها العرب فخاطبهم بمقتضى العقل السليم، فلو كنتم تعقلون الأشياء على حقيقتها، وتكلمون الأمور بميزانٍ منطقيٍّ فحسب لما فعلتم ذلك.

الوصية السادسة الحرص على مال اليتيم والنهي عن مقاربتة:

الأمر الأربعة الآن هي **(وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** وإذا اقتراب من الفقر الذي يحلُّ بأهلهم، والرابعة وهي النهي عن أن يقرب الإنسان الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والخامسة النهي عن قتل النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق، وختم هذه الوصايا الخمس بقوله: **(ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)** لأنَّ هذه الأفعال كان العرب يفعلونها، أو يفعلها بعضهم في الجاهلية كقتل الأولاد من الفقر، وغيرها كان يفعلها العرب فخاطبهم بمقتضى العقل السليم، فلو كنتم تعقلون الأشياء على حقيقتها، وتكلمون الأمور بميزانٍ منطقيٍّ فحسب لما فعلتم ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة الإسراء)

(سورة الإسراء)

كما ورد في مكان آخر من كتاب الله **(وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ)** لأنَّ الزنا له مُقَدِّمَات، فمن اقتراب من الاختلاط غير المنضبط، أو المصافحة، أو بالنظر المُحَرِّم، فجاء النهي عن مُقَدِّمَات الزنا، لأنَّ المعصية هنا لها ودش شديد يختطف الإنسان، كما تقول لا تقربوا التيار الكهربائي لأنه توتّر عالٍ، ولا نقول لا تلمسه، هذا منهى عنه من باب أولى، ولكن تنهى عن الاقتراب منه كي لا يجذّبك إليه، هنا **(وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)** نهى أبلغ من لا تأكلوا مال اليتيم، فالأكل مرفوض قطعاً، لكن ولا تقرب ماله أبداً.

الحرص على مال اليتيم بأن يحفظ له أصله ويثمر له فرعه:

قال: **(إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** ولم يقل بالحسن بل قال وإنما الأحسن، قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ أَنَّ أَحْسَنَهُمُ إِلَىٰ لِلْيَتِيمِ وَالسَّائِلِينَ وَالْمَسْكِينِ﴾ (سورة البقرة)

(سورة البقرة)

لكن عندما قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة العنكبوت)

(سورة العنكبوت)

لأنَّ المُخالف لك بربط فكرته بذاته، فإذا واجهته بغير ما هو أحسن، اشتدَّ تعلُّقه بفكرته أكثر فأكثر، أمّا إذا انتقيت من الكلام أحسنه، فإنلَّك ثلجته إلى قبول الحقِّ الذي عندك، فقال: **(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)**، يعني لو كان هناك كلمتان كلتاها حسنتان، لكن واحدة منهما أحسن من الأخرى، فخذ الأحسن ودع الحسّن، وهنا قال: **(إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** يعني أحسن طريقة لتشغيل ماله، وهي أن تحافظ على أصله وأن تُثمر فرعه، بأن تُنفق عليه لا من أصل المال وإنما من ثمره المال، فبذلك يُحَقِّق له أصل المال، أمّا لو لم تقرب ماله أبداً، ووضعت في صندوق، وأنفقت عليه منه، فإنك بذلك تقضي على ماله بعد حين، أو على جزء كبير من ماله، فينبغي أن تقر به ولكن بالتي هي أحسن، وبالتي هي أحسن تشمل أيضاً أن لا تضعه في تجارة يغلب على طبعك حُسرانها، فتجعله رديئةً للمالك، يعني تنقي به تجارة، يعني إن وجدت تجارةً غير مُتأكدٍ منها، بعيدة عن مجال عملك الذي أنت متقنٌ له من سنوات عديدة، وتأكل منه، جاءتك تجارة قلت أضع فيها مال اليتيم، ثم أنا بريء خبيرت ماذا أفعل؟ لا لست بريناً لأنَّ هذا ليس هو الأحسن، كان ينبغي أن تضع أمواله مع مالك الذي تستثمره ويربح، وتعلم أنه غالباً يربح.

هذا من معاني **(إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** تثير المال بحيث يبقى أصله، وتُنفق على اليتيم من أرباحه، أو من بعض أرباحه، بحيث تُنمّي له ماله، وعند جمهور الفقهاء تجب الزكاة في مال اليتيم، لذلك كان يقول عمر رضي الله عنه " **انجّروا بأموال اليتامى لا تأكلها الصدقة**" يعني إذا كل سنة ستدفع له اثنتان ونصف بالمائة من ماله المُحمَّد فأكلت الصدقة المال، أمّا إذا اتجرت به، فالآن تُخرج الزكاة وتُعلمه منه، وقد يزيد له من الربح أيضاً، وتحفظ له أصل ماله، هذا من معاني **(إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)**.

متى يبلغ اليتيم أشدّه؟

قال: (**حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ**) ماذا يحصل؟ تدفع له ماله، يعني هنا كلام مجبور، حتى يبلغ أشدّه فادفعوا له ماله كما ورد تفصيل ذلك في سورة النساء:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ۗ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (6)

(سورة النساء)

(**حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ**) هذه القوة البدنية، (**فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا**) خبرة في السوق والعمل التجاري (**فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**)، لما نزلت الآيات في سورة النساء، شق ذلك على الناس الذين عندهم أيتام، حتى من شدّة تنفيذهم لأمر الله عزلوا مال اليتيم عن مالهم، حتى عزلوا طعامه عن طعامهم، فصاروا يدعون له طعامه فلا يأكله فيفسد لكن لا يقربوه أبداً، فيبين الله تعالى أنّه يجوز أن تخلط مالك مع ماله إذا كان في ذلك إصلاح لماله، فقال تعالى: (**وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**) إذا كنت تشغل وقتك في تمير ماله، فكلّ من ماله بالمعروف، يعني بالحد الأدنى الذي يُقيم حياتك وكأنك تأخذ أجرك، قال العلماء بالمعروف تأخذ أجراً مثل الأقل، يعني إذا كان بالسوق إنسان يريد أن يُقر هذا المال كم يأخذ؟ تأخذ المثل، أقل شيء ممكن.

(**حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ**) يبلغ أشدّه بالقوة البدنية (**حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ**)، والقوة الفكرية العملية، خبرة الاثنان معاً بلغ أشدّه بهما، ذهب الفقهاء لُحدّدوا السن قال البعض: ثمانين عشر سنة، قال البعض: بعد سن البلوغ، قال البعض: خمس وعشرون سنة، الحقيقة أنّ القرآن لم يُحدّد السنة لأنّ الناس يختلفون، قد تجد شاب من الثمانية عشر سنة ممكن أن تدفع له ماله ويستثمره أحسن منك، عنده خبرة، فتدفعه، وممكن شاب صار عمره ثمانية عشر سنة وهو طالب ثانوية عامة، ودخل الجامعة وهو ما عنده خبرة في السوق، فتنتظر حتى يبلغ الخامسة وعشرين سنة وهكذا، فالأمر (**وَإِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ**) يعني امتنهم، قل له: انظر، لأنه إذا أعطيت ماله وبلغ النكاح، ولم يتزوج بعد وأعطيت ماله، بمجرد البلوغ قد ينفقه على شهواته، ولا يُبق شيئاً لنفسه منه، فترك الأمر لك يا ولي اليتيم، أو للقاضي، أو للحكم، أو لمن يرتضيه أهل اليتيم حتى يتبين أنّ هذا الشخص بلغ مبلغ الرجولة، وأصبح قادراً على إدارة ماله بنفسه، وهذا يختلف باختلاف البيئات والظروف والأشخاص (**حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ**).

الوصية السابعة الوفاء بالكيل والميزان والعدل فيهما:

(**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ**) الوصية السابعة من الوصايا العشر (**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ**) الوفاء أن تُعطي الشيء كاملاً غير منقوص، الكيل للأشياء المكيلة المُعتمدة على الحبوب مثلاً، الحليب، بعض السوائل، والميزان للأشياء التي تعتمد على الكثافة، إذا في كل وزنان، ويوجد المقياس الذي يعتمد على المتر، قماش مثلاً.

(**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ**) أي بالعدل، والحاجة بحسبها يكون ميزانها، يعني إذا ذهبت لتشتري كيلو عدس، فالميزان المعروف يوزن به، واليوم يوجد ميزان الكتروني أدق، وسابقاً كان ميزان عادي له كفتان، إذا ذهبت لتشتري خروف، فكانوا يضعونه على ما يُسمونه القبان، يعني هذا إذا كيلين زيادة أو كيليين نقصان، يعني الخروف أكل زيادة أو شرب قبل بيوم، فيزيد أو ينقص بين الستين كيلو والاثنان والستين كيلو فهذا فيه تسامح، إلا أن يكون هناك شيء مقصود من قبل الراعي، كان يُسمّن العجل قبل ذبحه بما يشربه، هذا طبعاً لا يجوز لأنه أصبح فيه نيّة عيش، فالميزان بحسب الموزون، إذا كان تريد أن توزن ذهب، فتضع الميزان الدقيق جداً، وتضع حوله زجاج حتى لا يُؤثر الهواء به لأنّ الوزن بالغرامات، فكل موزون يوزن بحسب قيمته ونفاسته، فقال: (**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ**) لكن رغم ذلك مع اختلاف الموازين، القسط العدل التام، العدل المُطلق لله وحده، فقال: (**لَا تَكْفُفْ تَعْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**) يعني استنفيذ وسعك في العدل، في الكيل والميزان، لكن أحياناً أجزاء من الغرام بالذهب ممكن إن لا تكون صحيحة لسبب أو لآخر، أجزاء من الغرام، بالكيلو ممكن غرامان، الوزن مائة كيلو ممكن كيلو، (**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ**) تخفيفاً على الناس قال: (**لَا تَكْفُفْ تَعْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**)، لكن هذا الوسع ينبغي أن تستنفيذ الجهد فيه، وليس لإنسان إذا كان الكيل له، فيضع المكيل ويضع فوقه الكيل ويمسكه بيده حتى لا يسقط، وإذا كان بالعكس لا بهتم، بل تضعه كاملاً وبشكل واضح، وتعني بقوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2)

(سورة المطففين)

إذا كان له يقول له أريدته كاملاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6)

(سورة المطففين)

انظر كيف جاء اليوم العظيم مع التطفيف في حقوق العباد، التطفيف في حقوق العباد زيادةً أو نقصاً، (**لَا تَكْفُفْ تَعْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**)، لا تعني أبداً التهاون، وإنما تعني فتح باب الرحمة في الأمور التي لا يملكها الإنسان، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم في قضية الزواج، تعدد الزوجات قال:

{ اللهم هذا قَسَمِي فيما أَمَلِكُ، فلا تَلْمُنِي فيما تَمَلِكُ ولا أَمَلِكُ - يعني القلب - . }

(أخرجه أبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد)

أنا لا أستطيع أن أعول بين زوجتين، بحيث أكره لكل واحدة منهما الحُبَّ نفسه، وأواجه كل واحدةٍ منهما بالكلام الطيب نفسه، هذا فوق طاقتي، لأنَّ الإنسان يميل قليلاً، لكن ما يستطيعه أن يبيت عند هذه ليلة وعند هذه ليلة، ما يستطيعه أن يُفقي مائة هنا ومائة هنا، ما يستطيعه أن يُهدي هذه ويُهدي هذه وإن كان يُجِئها أقل من الزوجة الثانية، ما يستطيعه أن يدخل البيت في الحالتين باسماً، لا يدخل هذا ياسماً وذاك مُكشراً، قال: **(هذا قَسَمِي فيما أَمَلِكُ، فلا تَلْمُنِي فيما تَمَلِكُ ولا أَمَلِكُ)** فالعدل المُطلق عند البشر مستحيل لا يوجد عدل، العدل المُطلق عند خالق البشر جلَّ جلاله، أمَّا نحن فنحرص على العدل ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، **(لا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)**.

الوصية الثامنة العدل في القول:

الوصية الثامنة **(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)** العدل في القول، ولو كان الذي تتكلم الكلام بحقه، يعني تحكُّم عليه لا له ولو كان قريباً منك، قرابةً نسبيةً أو صداقةً أو شريكاً هذه القرابة، **(وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)** وأوصانا النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث:

{ أوصاني خليلي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخصالٍ مِنَ الْخَيْرِ: أوصاني بآلٍ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي وَأَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي وَأوصاني بِحَبِّ

المساكينِ وَالذُّنُوبِ مِنْهُمْ وَأوصاني أَنْ أَصِلَ رَجْمِي وَإِنْ أَدْبَرْتُ وَأوصاني أَلَّا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً

وَأوصاني أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا وَأوصاني أَنْ أَكْثِرَ مِنْ قَوْلٍ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنَ كَنْزِ الْجَنَّةِ) {

(أخرجه ابن حبان في صحيحه)

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى).

الوصية التاسعة الوفاء بعهد الإيمان بالله والطاعة له:

الوصية التاسعة **(وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا)** وأعظم العهود مع الله عهد الإيمان به، وعهد الطاعة له، ثم ما يكون بينك وبين الله من عهود، تُعاهده على الصلاة، تُعاهده على الاستقامة على أمر الله، ثم ما يكون بينك وبين عباد الله من العهود.

(ذَلِكَ وَمَا كَانَ مِنْكُمْ بِهِنَّ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)، ذلكم أي ما سبق، وجاء هنا تذكرون لأنَّ هذه الأمور كانت تعرفها العرب وتعرف أنها، بل كان بعض العرب يتباهون بصنيعها، فيعتنون بالآتيان، العرب عندهم عناية بالنيام، كان عند كثير منهم وفاء بالكيل والميزان، كان العربي يقول كلمة الحق ولو على نفسه، كان كثير من العرب يوفون بالعهد، وإن كان ليس العهد الإيمان والتوحيد الذي نريده، ولكن بشكل عام الوفاء بالعهد، فجاء **(لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)**، يعني هذه الأمور تفهمونها، تحتاجون إلى تذكيرها وتصحيح مسارها، أمَّا الخمسة الأولى فتحتاج إلى العقل فقط، لأنكم لا تفعلونها.

الوصية العاشرة تقوى الله باتباع سبيله:

وأما الوصية العاشرة فجاءت بآية مُنفردة لتجمع ما سبق قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)

(سورة الأنعام)

جاءت بالتقوى، لأنَّ التقوى أعظم الأمر، وهذا ختام الوصايا، وهي الوصية الجامعة لما سبق، **(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا)** قال بعض المفسرين: هنا يوجد لا المحذوفة، يعني ولأنَّ هذا صراطي مستقيماً، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل، وقال بعضهم بل هي تنمة لما قبلها **(فَلَنْ تَعَالُوا أُنْزِلَ مَا يَرْجُمُ عَلَيْكُمْ)** من هذا الذي أتوه **(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا)**، والمعنيان صحيحان، **(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا)**، كما في كُتُب الحديث:

{ خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا، وَخَطَّ خَطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ

مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ {

فجاءت السبيل مُفردة لبيان أنّ الحقَّ واحدٌ لا يتعدد، ولو تعددت طرق الوصول إليه لكنه واحد، وهو كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم، فليس هناك حقان، ولذلك قالوا: " الحرب بين حقيين لا تكون " لأنَّ الحقَّ واحد لا يتعدد، " وبين حقي وباطلي لا تطول " لأنَّ الله تعالى مع الحقِّ فينصره، " وبين باطلين لا تنتهي " لأنَّ الأمر متروكٌ إلى العُدَّة والعتاد، وكل طرفٍ يقوى فيعيد الكثرة على الأول وهكذا.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ، السُّبُلَ جمع والسبيل مُفرد، (وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) هذه هي الوصايا العشر التي قال ابن عباس رضي الله عنهما فيها: " إنه لم يأت شيءٌ من الكتب نسخها " يعني هذه جاءت في كل الكتب السماوية ولم تُنسخ، يعني هذه الوصايا لا تقبل النسخ، يعني لا يكون الأمر لا تقربوا مال اليتيم، ثم يأتى اقربوا مال اليتيم، هذه أوامر ثابتة في كل الشرائع، وقال: " هي من أم الكتاب "، وقال كعب الأحبار يوم أسلم قال: " هي في التوراة قرأتها في النوراة "، يعني جاءت في كل الكتب السماوية هذه الوصايا العشر، فمن استكملها كما جاء عن ابن عباس دخل الجنة، وأجرها يجمع ما لم يرد فيها، يعني كل شيء في صراط الله مُستقيم، الصراط هو الطريق الواسع، (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

من تمام نعمة الله على عباده أنه أتى موسى الكتاب:

ثم يقول المولى جلَّ جلاله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154)

(سورة الأنعام)

هذه التَّمُّ في الأصل تُفيد الترتيب، ترتيب الحدث، يعني تقول جاء سامر ثم أحمد، يعني دخل سامر وبعد عشر دقائق الترتيب على التراخي دخل أحمد، سامر فأحمد يعني للترتيب على التعقيب، سامر وفورا بعده أحمد، هذا ترتيب أحداث، فهنا (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) موسى أوتِيَ الكتاب قبل محمد صلى الله عليه وسلم، هنا ليس الترتيب للأحداث، وإنما الترتيب للإخبار، كأن يكون هناك حدثان، واحد جرى السبت والآخر الأحد، فأخبرتك بالحدث الذي جرى الأحد، ثم أخبرتك بالحدث الذي جرى السبت، فأنا إخباري لك هذا ترتيبه، لكن الحدث ليس هذا ترتيبه، ثم تأتي لترتيب الأحداث، وتأتي لترتيب الإخبار بالأحداث، فهنا الترتيب إخباري وليس لترتيب الأحداث، (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا) تمام النعمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحَمُّ الْجَنْزِيرُ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذِيحَ عَلَى التُّضْبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْسَبُوهُمْ وَاحْسِنُوا وَتَمَّتْ لَكُمْ الْيَوْمَ أَمَلَاتُكُمْ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3)

(سورة المائدة)

فمن تمام نعمة الله على عباده أنه أتى موسى الكتاب، أي التوراة هنا، الكتاب إذا أُطلقت يعني القرآن الكريم، لكن إذا قُيِّدت بموسى فهي التوراة، يعيسى فهي الإنجيل. (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا) هنا لطيفة من اللطائف، أنّ هذه الوصايا العشر كما ذكرت لكم وزدت في التوراة، كما قال كعب الأحبار، فجاء ذكر موسى عَقِب الوصايا العشر. (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ) يعني على المُحسنين، من تمام نعمة الله تعالى على المُحسنين المؤمنين به، لأنَّ الكتاب ينزل فيكون فيه شفاء للمؤمنين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وُنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ نِبَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَرْبُدُوا الطَّالِبِينَ إِلَّا حَسَارًا (82)

(سورة الإسراء)

القرآن الكريم تمام النعمة والهداية وهو منهج كامل:

(تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ) يعني لكل شيء يكون فيه سعادة الناس في أمر دنياهم وأخراهم وليس كل شيء بمعنى أنه لو بحثت في التوراة عن علم الفلك لوجدته، ولا في القرآن كما يتوهم البعض، أن القرآن فيه تفصيل كل شيء، ليس المقصود كل شيء بمعنى أنه أريد أن أبحث عن علوم الفيزياء، هناك إشارات علمية في القرآن الكريم ذكرها المولى جل جلاله، إشارات إعجازية، لكن القرآن الكريم هو تمام النعمة والهداية وتفصيل كل شيء، يُقَرِّبُنَا مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ يُبْعِدُنَا عَنِ النَّارِ، قال صلى الله عليه وسلم:

{ ما تركت من شيء يقرّبكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به، ولا تركت من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به }

(الألباني إسناده صحيح)

فالقرآن بهذا المعنى يُفصّل كل شيء، والتوراة فضّلت كل شيء، فمنهج الله كامل.

(وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّاهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) هُدى، يهديهم إلى طريق الرشاد، ورحمة يملئ قلوبهم سعادة وسكينة وحبًا، (لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) فالقرآن يذكرك بالبعث والوقوف بين يدي الله تعالى.

القرآن الكريم مبارك كثر خيره:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155)

(سورة الأنعام)

وهذا يعني القرآن الكريم، (مُبَارَكٌ) ما معنى مبارك؟ كثر خيره، هو كريم تزيده تدبيراً فيزيدك عطاءً، يزيده قراءةً فيزيدك سكينَةً، ومُبَارَكٌ بمعنى أن خيره عميم لا يحرق على كثرة الرد، كلما أردت شيئاً وجدت بُعيتك في كتاب الله تعالى فهو مبارك، كثر خيره، (فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) اتبعوا القرآن واتقوا الله، لعلكم، أي رجاء أن يرحمكم الله تعالى بهذا القرآن الكريم.

نزل القرآن ليقطع الحجّة بأنه أنزل على الذين من قبلنا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (156)

(سورة الأنعام)

(أَنْ تَقُولُوا) أي أنزل هذا الكتاب ليقطع عذرکم وحقنکم، لنلا تقولوا (أَنْ تَقُولُوا) يعني لنلا تقولوا (إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا) طائفتين كبيرتين وهما اليهود والنصارى، فأنزل الله عليكم الكتاب لنلا يقول قائل منكم نحن قومٌ لسنا أهل كتاب، نحن قومٌ أميون لم يُنزل علينا كتاب، الآن القرآن يدخل بأعماق النفس، النفس عندما تريد أن تترك الحق وأن تُعرض عنه تتخذ أعداءً، من أعدائها أن يقول قائل الكتاب أنزل على من كان قبلنا، أمّا نحن لسنا أصحاب كتاب، هم أهل الكتاب، نحن لسنا أصحاب كتاب، فقال تعالى: (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) هذا منهجك بين يديك، مثل طفل يقول لوالده: أنت لم تشتري لي حاسوب، لو اشتريت لي حاسوباً كنت درست، أخي أحضرت له حاسب فدرس ونجح، أمّا أنا لم تشتري لي، فقال له خذ هذا حاسب، ادرس وانجح.

(أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ) عن دراسة كُتب هذه الجماعات التي قبلنا كُتبنا غافلين، لم نقرأ كُتبهم.

القرآن الكريم أعظم الكتب وأشرفها:

أو تقولوا العذر الثاني:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
**"أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ آيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصِدْقُونَ عَن آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصِدْقُونَ" (157)**

(سورة الأنعام)

هذا عُذْرٌ ثَانِي يَصْطَنِعُهُ الْإِنْسَانُ، عِنْدَمَا يُقْصِرُ يَقُولُ لَكَ: أَنَا لَوْ كَانَ مَعِيَ مَالٌ لَكُنْتُ بَنَيْتُ مَسْجِدًا أَكْبَرَ مِنَ الَّذِي بَنَاهُ هُوَ، هَكَذَا الْإِنْسَانُ يُحِبُّ أَنْ يُجَادَلَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
"وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ" (54)

(سورة الكهف)

تَقُولُ لَهُ مِثْلًا أَتَيْتَ لِمَاذَا لَا يَقُومُ اللَّيْلُ؟ يَقُولُ لَكَ أَنَا لَوْ مِثْلَهُ لَيْسَ لَدِي عَمَلٌ فِي الصَّبَاحِ بَاكِرًا لَكُنْتُ صَلَّيْتُ، يَعْنِي يَضَعُ عُذْرًا لِتَقْصِيرِهِ دَائِمًا، فَيَقُولُ تَعَالَى هُنَا لِيَقْطَعَ الْعُذْرَ عَلَى الْعَرَبِ، قَال: (أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ)، جَاءَكُمْ، أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، بَلْ هُوَ أَعْظَمُ الْكُتُبِ وَأَشْرَفُهَا، وَجَاءَ مُهِمًّا عَلَى مَا قَبْلَهُ، وَنَاسِخًا لِّكُلِّ مَا سَبَقَ، فَانْتَمِ الْآنَ أَصْحَابُ الْكِتَابِ، هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَأَنْتُمْ الْيَوْمَ مِنْ أَهْلِ اللَّهِ، أَهْلُ الْقُرْآنِ وَخَاصَّتِهِ.
(فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ آيَاتِ اللَّهِ) بَعْدَ الْبَيِّنَاتِ، يَعْنِي لَا يُوْجِدُ مِنْ أَظْلَمِ، هَذَا اسْتِفْهَامٌ إِقْرَارِيٌّ تَقْرِيرِيٌّ، بِمَعْنَى لَا يُوْجِدُ أَظْلَمَ مِمَّنْ كَذَّبَ آيَاتِ اللَّهِ، الْبَيِّنَاتِ وَاصِحَّةٌ، الْقُرْآنَ بَيْنَ يَدَيْنَا، هُدًى وَرَحْمَةً وَبَيَانَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ.

التهديد والوعيد لمن انصرف عن آيات الله وصرف الناس عنها:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ آيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) صَدَفَ عَنْهَا يَعْنِي أَعْرَضَ عَنْهَا، انصرفت عنها، أو صرف غيره عنها، يعني نحن عندنا الأفعال في اللغة العربية إما أن تكون لازمة أو متعديّة، اللازم يكتفي بفاعله، بمرفوعه، يعني لو قلت جلس زيدٌ، مفعول به لا يوجد، ممكن جار ومجرور على الكرسي، على الطاولة، لكن المعنى انتهى، جلس زيدٌ، لكن لو قلت ضرب زيدٌ، ماذا ضرب؟ الحائط، أخاه، صديقه؟ فضرب متعدي ينتظر مفعولاً به.

الآن صَدَفَ، تَأْتِي صَدَفَ عَنِ الذِّكْرِ يَعْنِي أَعْرَضَ عَنْهُ، وَتَأْتِي صَدَفَ غَيْرَهُ عَنِ الذِّكْرِ، يَعْنِي مَنَعَ غَيْرَهُ مِنَ الذِّكْرِ، فَصَدَفَ تَأْتِي لِأَزْمَةٍ وَمُتَعَدِّبَةٍ، فَجَاءَ الْقُرْآنُ بِهَذَا الْفِعْلِ بِحَيْثُ يَحْمَلُ الْمَعْنِيَيْنِ مَعًا (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ آيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) يَعْنِي صَرَفَ عَنْهَا النَّاسَ، أَوْ أَعْرَضَ هُوَ عَنْهَا، إِمَّا أَعْرَضَ أَوْ جَعَلَ النَّاسَ يُعْرَضُونَ، (وَصَدَفَ عَنْهَا).

(سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصِدْقُونَ عَن آيَاتِنَا) أَي يُعْرَضُونَ عَن آيَاتِنَا، أَوْ يَجْعَلُوا النَّاسَ تُعْرَضُ عَن آيَاتِنَا (سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصِدْقُونَ) هَذِهِ الْبَاءُ السَّبَبُ، (سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصِدْقُونَ عَن آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ) بِسَبَبِ إِذْ كَانُوا يَنْصَرِفُونَ عَن آيَاتِنَا، أَوْ يَصِرْفُونَ النَّاسَ عَن آيَاتِنَا، فَهَاتَانِ الْآيَاتَانِ الْأَخِيرَتَانِ، تُبَيِّنَانِ عُذْرَيْنِ مِنَ أَعْدَارِ النَّاسِ، وَتَقْطَعُ الْعُذْرَيْنِ مَعًا، فَلَيْسَ هُنَاكَ عُذْرٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: الْكِتَابُ أُنزِلَ عَلَيَّ غَيْرِنَا وَنَحْنُ لَا يَعْنِينَا الْأَمْرُ، وَلَا مِنْ عُذْرٍ أَنْ يَقُولَ: لَوْ أَنَّهُ أُنزِلَ عَلَيْنَا لَكُنَّا أَهْدَىٰ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ فَقَطَعَ هَذِهِ الْأَعْدَارَ، فَبَعْدَ ذَلِكَ مِنْ يَصْرِفُ عَنِ آيَاتِ اللَّهِ سَيَكُونُ لَهُ سُوءُ الْعَذَابِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.